المبحث الأول

العلاج بالموسيقي

- **الموسيقي والانسان :**

الموسيقي قديمة قدم الزمان .. تملأ أرجاء الطبيعة إيقاعاً وأنغاماً.. كما تملأ الكيان الإنساني بالإيقاع المنظم. فالنبضات فى جسمه ايقاع، باختلاله يختل الجسم كله، وبتوقفه تتوقف الحياة فيه. كما أن القلب وضرباته، والتنفس بشهيقه وزفيره، والمعدة والأمعاء فى انقباضاتها وانبساطاتها المنتظمة لدفع الطعام خلالها منذ ابتلاعه حتي اخراجه من الجسم، كل ذلك وغيره يسير حسب ايقاعات متنوعة، ولنها منتظمة ومتكاملة ومتجانسة، اذا اختل شئ فيها اختل الجسم كله واصبح مريضاً.

من هنا جاءت فكرة نظيم الايقاع الداخلي للإنسان، عن طريق الموسيقي بإيقاعاتها المتعددة المعينة لكل حالة مرضية.

إن استخدام الموسيقي لأجل صحة وسعادة وراحة الإنسان شيء معروف على مستوي العالم . ومن المعترف به أنها ليست فقط شيئاً ترفيهياً، ولا هي محصورة فى مجال الفلسفة أو العبادة، بل استخدمت للتأثير على النواحي العقلية والعاطفية والجسمانية والحركات اللاإرادية .. حيث أنها لغة الانفعالات والعواطف، فتغير الأحاسيس والانفعالات بشتي أشكالها، المرحة أو الحزينة، الهادئة أو العنيفة، الدافعة إلى الهدوء والتأمل أو الدافعة إلى الحماس والثورة.

فالموسيقي والعلاج رفيقان، لم يفترقا خلال أحقاب تاريخ الإنسان .. فهي من أقدم الوسائل العلاجية، لذا استخدمت منذ أقدم العصور بطريقة بدائية .. ثم تطورت إلى ما وصلت اليه فى عهدنا هذا ، بناء على دراسات وتجارب تقبل المزيد من التطور.

فللعلاج بالموسيقي تاريخ طويل مثل أي علم من العلوم، بدأ بالخرافة ثم انتقل إلى مرحلة العلم .. وهي قصة الإنسان مع مختلف الظواهر الطبيعية ، وحياته الاجتماعية والنفسية والجسمانية.

1- الفن والجمال فى حياة الإنسان:

قال "ديبوس" (Du Bos): " أهم ما يميز الإنسان هو تفرده بامتلاكه لصفات وخصائص انسانية تميه عن سائر الخليقة. وما ينميها هي ملكاته الفنية بوجه عام والموسيقية بوجه خاص فالطبيعة البشرية هي نتيجة تفاعل بين كل ما فى داخل الإنسان من تركيبات وما فى خارج من بيئة.

وخبرة الإنسان الحسية هي التي تحدد مقدار تفاعله مع بيئته وتلك حقيقة نلمسها فى مختلف ظواهر الحياة .. فصغار الأطفال – حتي الحيوانات – لا تنمو نموا سليما الا اذا توافرت لها ا لمؤثرات الحسية والخبرة فالإدراك الحسي للطفل هو جزء من تكوينه الجسماني .. هذا التكوين الذي ينطوي على وظائف بيولوجية ونفسية شديدة الترابط.

اننا نعتمد كلية على حواسنا حتي فى أبسط المعلومات الأولية .. فحواسنا الخمس – السمع والبصر واللمس والشم والتذوق – هي التي تقوم باستقبال المعلومات والمؤثرات وتوصيلها إلى المخ ، ولكل منها تأثيرها الخاص . ومن مجموع هذه التأثيرات تنمو حاسة الإنسان الجمالية، أو بمعني آخر، ينمو تذوقه الفني.

ومن هنا تأتي وظيفة الموسيقي أو غيرها من الفنون فى حياة الإنسان لإثراء عالمه الروحي ولفائدة حياته الصحية.

فمن الصعب تحقيق التناسق الصحي السليم بين النمو الجسماني والروحي، الا اذا تفتحت مداركنا الانسانية فى مناخ فني يثري احساسنا الجمالي. لذلك لا يمكن فهم أو تفسير القصور العقلي أو العجز عن الاحساس بالفن والجمال بمعزل عن ظروف البيئة وما يحيط بها من مظاهر مختلفة . ولا نتجاهل رتابة المؤثرات الفنية التي لا يمكن أن تؤدي إلى النمو الذهني المنشود.

واذا كان الابداع المالي والاحساس به هما من اهم الخواص المميزة للإنسان، فمن الطبيعي أن تكون هناك علاقة ما بين الافتقار إلى الحس الجمالي وبين ظهور

حالات من المرض أو التخلف العقلي .. فالطفل الذي يربي فى بيئة تفتقر إلى الأثر الفني والأحاسيس الطبيعية يكون نموه الذهني متناسباً مع مؤثراته الحسية، ويؤدي ذلك إلى قصور دائم فى نمو ذكائه.

ولا يقتصر الأمر على السلوك فقط، بل تظهر أيضاً ادلة تشريحية وكيميائية.

فعند عزل بعض حيوانات التجارب عن المؤثرات الحسية، وجد "وسكرانتز" دماراً فى الابصار، ووجد "ليبرمان" تغيرات فى حمض الريبونيوكلييك بالجسم، كما بينت التجارب أن استمرار حرمان الجسم من المؤثرات يؤدي إلى تغييرات فى رسم المخ الكهربائي.

كذلك لا يقتصر ضرر الحرمان من المؤثرات الحسية على الصغار فقط، بل يؤدي بالإنسان البالغ إلى سلوك غير طبيعي، فيفقد احساسه بذاته، وقد تحدث هلوسات.

كل هذه التجارب والحقائق تبين أن كمية ملائمة من المؤثرات الحسية، مع شئ من التجديد، ضرورية جدا للحالة الصحية للجسم .. فهناك جوع حسى للمناظر والأصوات والايقاعات والأشكال والتركيبات، خصوصاً للأطفال ، وإشباعها ضروري للنمو والذكاء. كما أن الدوافع للرؤية والسمع واللمس والذوق والشم طبيعية وملحة، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا جماليات.

ويمكن القول بصفة عامة أن اهم خاصيتين بارزتين فى تطور الإنسان ونمو تفاعله مع البيئة هما تأثير المجتمع الذي يعيش فيه وتطور وتعقيد مخه .. إنهما عاملان لا يمكن الفصل بينهما، فكلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به.

والواقع أن خبرة الإنسان الحسية السمعية هي التي تحدد مقدار تفاعله مع بيئته. فالإدراك الحسي للطفل هو جزء من تكوينه الجسماني، هذا التكوين الذي ينطوي على وظائف بيولوجية ونفسية شديدة الترابط والامتزاج.

- **لذلك قال ماسرمان (Massrman):**

"كل الكائنات تدفعها احتياجاتها الفسيولوجية، بما فيها تلك التي توصل إلى الجمال".

وهذه حقيقة نلمسها فى مختلف ظواهر الحياة .. فصغار الأطفال والحيوانات الدنيئة لا تنمو الا اذا توافرت لها المؤثرات الحسية والخبرة، إننا نعتمد كلية على حواسنا حتي فى أبسط المعلومات الأولية التي تأتي من بيئتنا. ويمكن وصف المخ بأنه العضو الوحيد الذي يمكنه تقبل المعلومات والمؤثرات .. أما حواسنا الخمس – السمع، البصر، اللمس، الشم، التذوق ، فهي التي تقوم بتوصيل هذه المعلومات والمؤثرات إلى المخ.

وبالرغم من أن كل حواسنا تعطينا نوعاً من الاحساس، الا اننا لا نستطيع مثلاً أن نقول أن المؤثرات الصوتية اقل واقعية من مؤثرات حسية اخري. إن حواسنا تزودنا بالمادة الأساسية لما سيكون عليه ذكاؤنا ، وبنفس التأكيد، لما ستكون عليه حاستنا الجمالية.

"كلما زاد النمو الحسي للشخص زاد العالم الخارجي بالنسبة له، هذه هي بالضبط وظيفة الفنون بصفة عامة والموسيقي بصفة خاصة، فى حياة الإنسان لإثراء عالمه الروحي ومن هنا، بالتحديد، ينبع تأثيرها العلاجي.

وقد قال الدكتور" ريتشارد لينين" رئيس الجمعية الدولية للطب الفني "أن هذا الاتجاه اصبح بمثابة حركة اجتماعية جديدة فى ميدان الطب ، وأضاف أن الرسام " هنري ماتيس" كان على حق حينام كان يحمل لوحاته معه إلى حجرة اصدقائه المرضي فى فرنسا ، حيث كان على اقتناع بأن الألوان قادرة على تحسين حالتهم الصحية كما أن الاطباء فى بعض المستشفيات الأمريكية كانوا يشجعون مرضى الايدز على استخدام الأقلام أو الفرشاه فى التعبير عن مشاعرهم، بينما فى مستشفى آخر بولاية فلوريدا، ينضم المرضي لمائتين فى الفنانين فى صالة للرسم والنحت والموسيقي والرقص، وذلك للاستفادة بالفنون فى العملية العلاجية.

2- الموسيقي اتصال لا كلامي:

"عندما تتوقف القدرة على الكلام تبرز الموسيقي " .

الموسيقي تعمل كأنها اتصال لا كلامي . وتأثيرها اللاكلامي هو ما يعطيها قوتها وقيمتها. فكيف يمكن التعبير كلامياً عن قبلة عن ابتسامة؟ عن عبوس؟ عن إشارة وداع ؟ أو عن نظرة تواضع ؟ وكيف يمكن التعبير عما تحويه قطعة موسيقية من سيمفونية أو غيرها الا بالموسيقي؟

- **قال "جاستون" (Gaston):**

"لو كان من المستطاع الاتصال كلامياً بما يسهل الاتصال به موسيقياً لما كانت هناك حاجة إلى الموسيقي".

إن أعظم بديل كلامي للموسيقي اللاكلامية لهو شديد الافتقار إلى القدرة على التعبير .. إن الموسيقي لأقرب انواع الاتصال اللاكلامي ، يرعاها ويغذيها البشر بعمق.

إن اجتذاب الناس بعضهم إلى بعض ليس بالوظيفة الوحيدة للموسيقي ، لكن صفتها الفريدة تتمثل فى جعلها وسيلة مناسبة للوصول إلى ما قد يظن انه خارج للطبيعة والتأثير عليه .. حتى فى الأزمنة التي كانت حضارتها تفخر بمنطقيتها ، ارجع شفاء الأمراض بالموسيقي لقوي علاجية غامضة.

هذا النوع الخاص من الاتصال هو السبب فى ظن الناس خلال آلاف السنين أن الموسيقي غامضة أو حتى خارقة للطبيعة. ومازال أهل الهند يسمونها" ماذراسينتا" أي سحر الأغنية.

وحتي لا ننحرف إلى طريق الأسطورة ، يجب معرفة أن الموسيقي ليست فوق إدراك العقل ، لكنها غامضة .. إننا لا نعرف لماذا الموسيقي جميلة ، ولماذا ننفعل بها ، ولكن لا يوجد ما يبرر اعتبار الموسيقي من عالم آخر.. فهذا الاعتبار خاطئ تماماً.

فالكتابات تزخر بحالات " إعجازية" من الشفاء بواسطة الموسيقي ، إلا أنه فى أغلب الأحيان تخفي هذه القصص الطاقات العلاجية الأصلية للموسيقي خلف مظاهر

مـن الخرافـات ، لتكـون الملاحظـات المسـجلة مضـحكة للغايـة . لـذا ، بـدلاً مـن القـاء ضـوء يسـاعد علـى كشـف موضـوع غـامض ، تصـبح اساسـاً لادعـاءات خرافيـة لا أسـاس لها .

فالموسـيقي كتعبيـر لا كلامـي تجمـع ولا تفـرق – ممـا يجعلهـا وسـيلة مثاليـة للتكامل الاجتماعي.

3- الموسيقي لغة الانفعالات والعواطف:

مـن الحقـائق الواضـحة أن الصـوت الموسـيقي هـو الأكثـر ارتباطـاً بـالعواطف والانفعـالات ، لـذلك فـإن الموسـيقي اقـوي الفنـون اثـارة وتحريكـاً للـنفس .. فبأثرهـا الفعـال فـى النفـوس، تتغيـر الأحاسـيس والانفعـالات بشـتي اشـكالها ، المرحـة أو الحزينـة ، الهادئـة أو العنيفـة ، الدافعـة إلـى الأمـان والتأمـل أو الدافعـة إلـى الحمـاس والثـورة . فالموكـب الجنـائزي يـزداد تأثرهـا بعـزف مارشـات المـوتى. كمـا أن عزفـاً لفرقـة عسـكرية كبيـرة أو لطبـال منفـرد يسـاعد القـوات علـى السـير . وفـى الواقـع أن لـم تتـوافر لـه الموسـيقي ، فسـيوجدها الجنـود لأنفسـهم بالغنـاء والصـفير أو بإيقـاع الأقـدام أو بوسـائل اخري.

4- امكانيات الموسيقي:

إن طاقـات الموسـيقي معروفـة لـدينا أساسـاً مـن خـلال المظـاهر التـي تتحقـق، ولننـا حتـى الآن لا نعـرف سـوى أقـل القليـل عـن طبيعتهـا وطريقـة عملهـا. وبـالرغم مـن العامـل غيـر الملمـوس والغـامض فـى الموسـيقي، الا أن العلمـاء ظلـوا علـى مـر القـرون يعترفـون بمـا تنطـوي عليـه مـن طاقـات.. ويعملـون علـى الاسـتفادة مـن هـذه الطاقـات بمـا يتناسـب مع التطور فى كافة ميادين العلوم والفنون والآداب.

ولأن الموسـيقي عبـارة عـن أصـوات مختلفـة الذبـذبات ، بحيـث تبـدو اشـبه بشـريط مـن الأنغـام يشـعرنا بروعـة الإيقـاع، فمـن الممكـن القـول بأنهـا فـن امتـزاج الأصـوات بهـدف التعبير عن العواطف فى قالب جميع ممتع.

والمعروف أن الصوت يحدث نتيجة ذبذبة الهواء ، وكلما زادت سرعة ترداد الذبذبات فى الثانية زادت حدة الصوت. وتتراوح سرعة ذبذبات الصوت المسموع من 20 ذبذبة فى الثانية إلى 20 الف ذبذبة فى الثانية .. أما ما خلا ذلك فلا يمكن للأذن البشرية أن تسمعه. إن الموجات الصوتية التي تزيد ذبذبتها على 20 الف ذبذبة فى الثانية تسمي بالموجات فوق الصوتية (Ultra-soni Waves) ، وتستخدم هذه الموجات فى اغراض طبية، أي فى تشخيص وعلاج بعض الحالات المرضية.

فالصوت، إذن يعمل على اهتزام الهواء ، فيحدث موجات تترجمها الآذن، أو موجات تحسها الأطراف، فيهتز الجسم تجاوباً، كما كان الحال بالنسبة لبيتهوفن بعد أن اصبح اصم.

والموجات الصوتية تخضع لقانون تموج الأجسام. ورغم الأبحاث العديدة فى هذا الميدان، فإن العلماء لم يصلوا بعد إلى معرفة العلاقة العضوية بين الظواهر النفسية الحسية والعضوية وبين تنوع وتعدد واختلاف هذه الموجات .. كل ما نعرفه هو الأثر المباشر لهذه العلاقة، خصوصاً اذا كان الأثر نابعاً من إحساس عن صدق وعمق انفعالات مبدع الموسيقي.. فعندئذ نشعر بأن هذه الموسيقي تملك قدرة غامضة على النفاذ إلى أعضائنا وأحاسيسنا، تمتزج بها وتؤثر فيها، لدرجة أن الكائن البشري يساهم فى الميل إلى الذبذبة بنفس ايقاع الموسيقي.. وهذا اتجاه عام فى عالم الحيوان.

فكيف يمكن تفسير قدرة الموسيقي على النفاذ إلى كل جزء أو عضو فى أجسامنا، وكل احساس فى وجداننا؟

نحن نعرف أن ذبذبة أي جسم يمكنها التأثير على ذبذبة جسم آخر . فإذا كانت هناك آلة كمان على مسافة 2 إلى 4 أمتار من آلة كمان أخرى ، ثم عملنا على اهتزاز الوتر "رى"، مثلاً، للكمان الأولي، فإن وتر "رى" فى الكمان الثانية البعيد عنها سيهتز، من هنا يمكننا الوصول إلى معرفة قدرة الموسيقي النابعة من احساس معبر صادق، اذ أنها تتجاوب مع اهتزازات انفعالاتنا أيضاً، وتتخلل أعضاءنا وتؤثر فينا.

ومن هنا أيضا تتضح ظاهرة العلاج بالموسيقي.

إن العلاج الموسيقي هو عبارة عن تنظيم ايقاع الحركة داخل الجسم الحي بواسطة موجات الموسيقي، سواء عن طريق ايجاد الاسترخاء المفيد لكثير من الحالات المرضية، أو عن طريق تحقيق نسبة معينة من التوافق بين التنفس وسرعة النبض 4:1.

فالعلاج الموسيقي ينادي بالتعبيرات الصوتية الموسيقية التي تساعد على اخراج الطاقة الزائدة من الجسم دفاعاً عن هذه النفس. وبذلك يساعد على التخلص من الضيق النفسي الذي يسبب بعض الأمراض المختلفة.

لذا يمكن القول بأنه لا يوجد تعارض بين الموسيقي والعلم .. فكل ما هو حق يتلاقي ولا يتعارض. فالموسيقي تشكلها الثقافة، ولكنها بدورها تفرض نفوذها على تلك الثقافة التي هي جزء منها.

لذلك أصبح للموسيقي تقديرها اللانهائي، لأنها تنتمي إلى ميداني العلم وإبداع الفن فى آن واحد. كما تؤثر، بل وتتحكم ، فى حالتنا النفسية والعضوية بأكملها.

أولا: ماهية العلاج بالموسيقي What is music therapy

يعرف العلاج بالموسيقي بأنه: "العملية التي يقوم فيها المعالج الموسيقي بتزويد من يحتاج إلى هذا العلاج بمجموعة من الخبرات القائمة على الموسيقي بهدف إحداث تغييرات سلوكية ملحوظة فى أدائه ثم يقوم المعالج بعمليات التقييم لهذه التغييرات

ويعتبر العلاج بالموسيقي هو العملية التي يتم بموجبها تنظيم ايقاع الحركة داخل الجسم الحي بواسطة موجات الموسيقي وإيقاعاتها سواء عن طريق الاسترخاء المقيد لكثير من الحالات المرضية، أو عن طريق تحقيق نسبة معينة من التوافق بين التنفس وسرعة النبض، فتساعد التعبيرات الصوتية الموسيقية على إخراج الطاقة الزائدة من الجسم وهو الأمر الذي يساعده فى التخلص من العديد من اوجه القصور المختلفة والمتباينة التي يعاني منها.

هـو ايضـا اسـتخدام الموسـيقي كوسـيط فـى العمليـة العلاجيـة مـن خـلال اسـتخدام مكونـات وعناصـر موسـيقية معينـة فـى برنـامج علاجـي يقـوم فـى أساسـه علـى الموسـيقي ، وذلـك اعتمـاداً علـى مكوناتهـا وأهميتهـا بالنسـبة للانسـان ، وبالشـكل الـذي يسـاعد فـى تحقيق الأهداف المنشودة.

ثانيا: أهداف العلاج بالموسيقي:

أظهرت نتائج العديد من الأدبيات قدرة استخدام العلاج بالموسيقي فى علاج اضطراب التوحد لدي الأفراد الذين يعانون من هذا الاضطراب واظهرت نتائج مثل دراسة غولدن شتاين (Goldstein, 1964) ، ودراسة ستيفن وكلارك (Steven & Clark, 1929)، ودراسة هولاندر وجوهرز (Hollander & Juhrs, 1974)، ودراسة سبرستون (Saperston, 1973)، ودراسة شميدات وأدواردز (Schmidt & Edwards, 1976) ، ودراسة أرويك (Warwich, 1995) أن الموسيقي يمكن أن تسهم فى تحسين المهارات الاجتماعية Social skills، والمهارات السلوكية Behavioral skills، والمهارات بين الشخصية Interpersonal skills كما أظهرت نتائج الدراسات وجود تأثير للعلاج بالموسيقي فى تحسين المهارات اللغوية Language skills مثل دراسة إدغرتون (Edgerton, 1994).